وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

دروس في النقد الموضوعاتي

مقدمة لطلبة السنة الثالثة تخصص نقد ومناهج

السنة الجامعية 2022/ 2023

الدرس الأول : مفهوم المقاربة الموضوعاتية

من أبرز المشكلات التي علقت بالمنهج الموضوعتي ، تلك التي ترتبط بتعدد التسميات ، فيطلق عليه : الموضوعاتية والتيمية والظاهراتية والأغراضية والجذرية والمدارية ...

وقد كان هذا المنهج أقل المناهج استعمالا في الممارسات النقدية العربية وأكثرها التباسا لدى جمهور الباحثين العرب

ومن المفيد الإشارة إلى قضية هامة في البحث الموضوعاتي ، وهي ما أشار إليها عبد الفتاح كليطو متمثلة في الدعوة " إلى ضرورة إقصاء جميع الأبحاث العربية التي تتحدث عن موضوعات بعينها في الأدب مثل المرأة والمدينة...الخ والتركيز على أن الموضوعاتية هي التي ترصد شبكة الصور السارية في النصوص وتداعياتها وكل العلاقات الخفية التي لا تظهر للقراء على مستوى السطح " .

وللوقوف على مفهوم المقاربة الموضوعاتية ، نعمد إلى توضيح الدلالتين اللغوية والاصطلاحية :

1- الدلالة اللغوية :

جاء في لسان العرب لابن منظور ، تحت مادة وضع ما يلي : " وضع ، الوضع ضد الرفع وضعه وضعا وموضوعا : وأنشد ثعلب بيتين فيهما : موضوع جودك ومرفوعه

عنى بالموضوع ما أضمره ولم يتكلم به ، والمرفوع ما أظهره وتكلم به "

فالنص عند ابن منظور يحمل دلالتين ، أحدهما ظاهر وسماه المرفوع والثاني خفي وعميق دعاه بالموضوع .

ويتحدد الموضوع في الحقل المعجمي الفرنسي من خلال ربطه بالجذر اللغوي " فالموضوع هو الجذر اللغوي بعد أن تضاف إليه الحركات التي منه معنى " ويضفي ذلك على الموضوع أهمية " لأنه يربط بين المعنى والشكل المجرد " .

وذكرت جاكلين بيكوش أن الموضوع ارتبط بدلالات فقد كان يعني في القرن 13 م " كل ما تعنيه كلمة sujet (مادة أو فكرة أو محتوى أو قضية أو مسألة في العربية) ، ثم تطورت في القرنيين 16 م و 17 م ، لتدل على امتحان مدرسي ، وترجمة ، وبعدها دخلت علم التنجيم منذ القرن 17 م ، ثم علوم الموسيقى واللغة منذ القرن 19 م ، حيث ظهرت كامة الموضوعاتية في القرن ذاته "

ويأتي مصطلح الموضوعاتي thematique في الحقل المعجمي بمعان مترادفة كالموضوع والغرض والمحور والفكرة الأساسية والعنوان والحافز والبؤرة والمركز والنواة الدلالية...الخ ، ويقابل كلمة theme عند اللسانيين الوظيفيين الجدد مصطلح التعليق rheme ، لأن التعليق عبارة عن موضوعات جديدة أو أخبار تسند إلى المسند إليه أو تضاف إلى الفكرة الرئيسية المحورية او النواة البؤرية " .

ويبدو جليا أنه من الصعوبة أن نقع على مفهوم لغوي غاية في الدقة والنجاعة للموضوعاتي لما يتفرع عنه من دلالات اشتقاقية واصطلاحية ، وأثار هذا الإشكال تذبذبا واضطرابا في مفهومه عند ترجمته إلى الحقل النقدي العربي .

2- الدلالة الاصطلاحية :

الموضوعاتية نسبة للموضوع ، وذلك يجعل من الموضوع " المبدأ الذي تلتقي عنده كافة المفاهيم التي تؤسس للمنهج الموضوعاتي " ، ويدفعنا ذلك إلى الوقوف عند مفهوم الموضوع في المقام الأول .

يعرفه جان بيير ريشار " الموضوع مبدأ تنظيمي محسوس ، أو ديناميكية داخلية أو شيئ ثابت يسمح للعالم حوله بالتشكل والامتداد ، والنقطة المهيمنة في هذا المبدأ تكمن في تلك القرابة السرية ، في ذلك التطابق الخفي والذي يراد الكشف عنه تحت أستار عديدة " ، وهكذا يعرف ريشار الموضوع من خلال ربطه بجملة الخصائص التالية :

أ- الموضوع مبدأ تنظيمي : بمعنى أنه يشكل نقطة انطلاق ، وهو ليس كذلك فحسب بل يشكل نقطة عودة كلما دعت الحاجة ، وإذا كان أمره كذلك في العملية النقدية فإنه لا يجب كذلك " أن نغفل أنه المبدأ الذي ينظم ويوجه العملية الإبداعية " .

ب- الحسية : ويعني ذلك أن الموضوع يلتقط أشياء العالم الحسي .

ج- ديناميكية داخلية : وهي صفة تجعل من الموضوع " يتشابك علائقيا في جدلية غير مرئية ، هذه العلاقات التي تتحكم في التفاعل بين العناصر المكونة للموضوع ، أو بين الموضوع وغيره من الموضوعات " .

د- الثبات : وتعني هذه الخاصية " أن الموضوع هو النقطة التي يتشكل حولها العالم الأدبي ".

ه- القرابة السرية : وهي الفاعل في ديناميكية الموضوع الداخلية وتتحقق من خلال العلاقات الخفية التي تنسجها عناصر الموضوع من خلال الأشكال والقوالب والصور في العمل الأدبي .

وهكذا يجعل ريشار من الموضوعا محورا أساسيا في أعماله النقدية يمعن النظر فيه ، ويعمل على تحديده بجملة من الآليات الإجرائية أهمها :

1- الأطرادية (التكرار) : ويستند في توظيف هذا الإجراء إلى أن الموضوعات الكبرى والمنظمة للعمل الأدبي " تتطور على امتداد العمل الأدبي ، وهي التي تقع عليها عيانا بغزارة استثنائية "

2- الوظيفة النوعية للموضوع : ويؤشرهذا الإجراء إلى أن قيمة الموضوع إنما تتحدد من خلال هندسة موقعه في العمل الأدبي ، فالمعنى الذي يكتسبه الموضوع لا يكون إلا من خلال علاقته بالموضوعات الأخرى داخل فضاء العمل الأدبي " هذا الفضاء العالمي والحميمي في نفس الوقت ، هذا الفضاء الذي يسميه جورج بوليه بالمسافة الداخلية وجان ستاروبنسكي بالعين الحية وعبد الكريم حسن بالكون التخييلي " .

إن قدرة الموضوع على التمفصل هي التي تمنحه أهية نوعية ، ذلك أنه كما يتحدد الإنسان بعلاقاته ، فكذلك يتحدد الموضوع بعلاقاته بالموضوعات الأخرى فالموضوعات " تميل إلى أن تنتظم كما يحدث في البنى الحية ، إنها تترابط في مجموعات مرنة يهيمن عليها قانون التشاكل والبحث عن افضل توازن ممكن " .

3- مفهوم المعنى : يشكل المعنى واحدا من المفاهيم ذات الصلة بالموضوع ولذلك يعد ريشار " الموضوع وحدة من وحدات المعنى " ويحيلنا ذلك إلى توصيف المنهج

الموضوعاتي أنه " بحث عن المعنى في كل الأتجاهات " ، وعلى سبيل المثال بحث موضوع الزهرة يقود إلى : الزهرة مركب لوني--أحمر--مركب حراري--التهاب--مركب حميمي--زهرة حانية بذاتها ، بما تنطوي عليه من كناية .

وتتم دراسة المعنى على أساس تصنيفه طبقا لمقولة المكان ، واعتبارا لذلك فإنه كل ما يخدم المعنى يسميه ريشار مقولة ويقدم مثالا على ذلك :

مقولة المكان ، مقولة الزمان.. وضمن هذه المقولة تبحث الموضوعاتية عن المعنى في كل الاتجاهات من ذلك :

كيف يتشكل المكان ؟ كيف يختار الجسد مستقره وسط العديد من الإمكانيات المتاحة وذلك عبر المقابلة بين المقولات القاعدية : كالقريب والبعيد والمغلق والمفتوح ، والأفقي والعمودي ؟ وضمن المقولة العمودي مثلا بين الأعلى والأسفل...

ويمنح هذا في دراسة المعنى ، الدراسة الموضوعية صفة الاستمرارية " فلا وجود لأي توقف أو إخفاق في سريان المعنى، فالمعنى يتفكك في اتجاه معنى آخر يتفكك بدوره في اتجاه كل المعاني " .وهذا التصادي الذي يحققه المعنى تطلق عليه الألسنية الحديثة " فيض المعنى " ويعني ذلك " المعنى لا يمكن أن يكتمل لأنه منفتح دوما على وجوه أخرى للموضوع ، وبهذا يأخذ التفكك معنى إيجابيا في قدرة المعنى على أن يصنع نفسه باستمرار " .

وتتحقق هذه الديناميكية للمعنى بتلك العلاقة التي تنتظم خلالها العناصر المبعثرة في العمل الأدبي فتنتسج فيما بينها ، وكل ذلك من شأنه أن يمنح القراءة الموضوعاتية " متعة خاصة يعود فيها الفضل إلى ذاك التزحلق المستمر فالحركة فيها حرة على الدوام ، ولا وجود فيها للعقبات " .

ومن خلال مقاربتنا للمفاهيم السابقة ، يمكننا أن نقف على بعض التعريفات للمقاربة الموضوعاتية :

يعرف المنهج الموضوعاتي بأنه " بحث عن النقاط الأساسية التي يتكون منها العمل الأدبي ، ومقاربة الكشف عن هذه النقاط الأساسية التي تجعلنا نلمس تحولاتها وندرك روابطها في انتقالها من مستوى تجربة معينة إلى أخرى شاسعة "، وتظهر

الموضوعات المقاربة " كمرسل يسمح بالغور داخل مختلف اتجاهات العالم الأدبي في انتظام حيوي ومجاميع منسجمة ومرنة يحكمها قانون التشاكل والتضاد والثبات والتحول والانفتاح والانغلاق والمباشرة والضمنية "

ويمكن أن يعتمد هذا المنهج في مقاربة العمل فكرة " الحلول " حيث " يحل الناقد في النص مستبعدا بذلك حياة المبدع لنصه ومستبعدا ما يحيط بالنص من عوامل خارجية " ، وهذا المفهوم يحيل على دراسة النص من " خلال لعبة العلاقات الداخلية بين عناصره ، منتزعا النص من ظروفه الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التي ولدته على الرغم من تأثير هذه الظروف في تكوين النص الأدبي " .

وليس ثمة مداخل محددة للدراسة الموضوعاتية " تنطلق من مداخل حرة وتصل إلى مخارج حرة كذلك " ، فالناقد الموضوعاتي يلج " العمل الأدبي وفضاءه التخييلي من أي نافذة شاء ، وتعتبر هذه الحرية سحرا مثيرا وميزة إيجابية لهذا النقد الزئبقي " .

والموضوعاتية أنواع أبرزها الموضوعاتية المضمونية " وهي حديث عن الأفكار والموضوعات في الأدب " ، والموضوعاتية البنيوية وتمثل " الانتقال من المضامين المختلفة إلى الأشكال الثابتة أي ثمة مصالحة بين البنية والتاريخ ، بين التزامن والتزمن ، والوصف والتطور " .

وتعمل المقاربة الموضوعاتية على " رصد كل الكلمات المفتاح ، والصور الملحة والعلامات اللغوية البارزة ، والرموز الموحية وقراءتها إحصائيا وتأويليا . ولن تكون هذه القراءة ناجحة وسليمة إلا بقراءة السياق النصي والذهني للكلمات واستكشاف المفردات المعجمية المتكررة " ، ويسلك الناقد في ذلك تطبيق آليات مهمة : كالتشاكل والتوازي والتعادل والترادف والتطابق والتقابل والتكرارو التواتر لتحديد البنيات الدالة المهيمنة والمتكررة في النص .

وإذا كان ذلك هو طريق النقد الموضوعاتي في دراسة النص الأدبي ،وموضوعه الذي يستهدفه وآلياته التي يستخدمها ، يظل السؤال مطروحا ، ما جدوى هذا النقد ؟ .

نقول أن النقد الموضوعاتي " يعلمنا أن نحاكم معرفتنا بشكل جدلي " فقد كان ريشار إذا أراد أن يعالج بعدا دلاليا ، عالجه عبر ذاته ونقيضه ، فعلم الدلالة يعلمنا كيف نحدد الأشياء بأضدادها .

الدرس الثاني : مصادر المقاربة الموضوعاتية

يتكئ النقد الموضوعاتي على بعض الأسس الفلسفية (الظاهراتية ، الوجودية والتأويلية الهرمونتيكية) وأسس إبستمولوجية (انفتاح على علم النفس ، علم المعجمات ، علم اللسان ، السيميائيات ، النقد الأدبي ، علم الجمال وشعرية التخييل).

وتعد الفلسفة الظاهراتية أكثر الفلسفات التي يخلص لها النقد الموضوعاتي ، و جاءت هذه الفلسفة " كرد فعل على النزعة المثالية والتجريبية " لأن الأولى تستبعد العالم الخارجي كمصدر للمعرفة ، والتجريبية تؤكد على الدور السلبي للوعي .

ومن المفيد جدا أن نعرج أولا على ما أفادته المقاربة الموضوعاتية من الفلسفات الأخرى قبل الوقوف على أثر الظاهراتية في النقد الموضوعاتي .

1- فلسفة غاستون باشلار :

تستهدف هذه الفلسفة منطقة من أعمق مناطق الوعي لدى الإنسان ، تسمى منطقة الاحتكاك البدئي بالعالم ، وف ذلك مخالفة للتحليل النفسي عند فرويد الذي يشتغل على منطقة اللاوعي في تفسير الظواهر الأدبية (الصور والرموز) ، في حين يبحث عنها باشلار في أصولها البشرية العامة حيث يراها ماثلة في عناصر الطبيعة الأربعة : الماء والنار والهواء والتراب .

ويكون الأمر في تحليل الصورة حسبه بردها إلى العنصر الأصلي الذي تنتمي إليه ، و بذلك نكون قد أعدنا الشاعر في مصدر إبداعه إلى احتكاكه البدئي بالعالم .

وأما الفكرة الثانية التي استقاها ريشار من فلسفة باشلار فهي " فكرة الخيال " و التخييل لا يعني : " صناعة صورة مطابقة للصورة الأولى التي رأيناها " لكنه يعني " تشويه الصورة الأولى من أجل صناعة مجال خاص هو ما أطلق عليه باشلار " عالم التخييل " ، وبتحليل الصورة الشعرية نصغي إلى العالم ، فالصورة تضعنا في أصل الكينونة ، ويضعنا الخيال في قلب الطبيعة البشرية .

2- الفلسفة الوجودية :

إن ما استقاه ريشار من هذه الفلسفة ، أنها تقدم وعيا بمسؤولية الذات لاختيارها إبداعيا ، أما من ناحية الوعي النقدي فيتجلى الأمر في محاولة كشف هذا الاختيار

الحر من أجل فهم الظروف التي تسمح للذات بأن تكون مبدعة أو لا تكون .

ويترجم هذا الفهم في النقد الموضوعاتي عند ريشار :

مسعى هذا الأخير لإمكانية أسر المعنى ، لكنه يخفق في محاولته ؛ لأن المعنى دائم الانفلات ومتابعته غاية في حد ذاته . بمعنى آخر : ينكب على اندفاعة المعنى وتحولاته خشية الجمود عنده .

وتوصف هذه الحرية بأنها مطلقة ، ويصعب فهمها ، لكن يمكن وصفها وهذا يعني : تركها تكون ، تظهر نفسها بنفسها .

ويقع هذا الخيار الذي يرتبط بالوعي عند سارتر موقع العناية الخاصة عند ريشار ، وهو يتمثل في ذلك الربط بين الرؤيا والأسلوب لأن الأسلوب يحيل في العمل الإبداعي إلى الجانب الميتافيزيقي عند صاحبه .

3- الفلسفة الظاهراتية :

تعد الفلسفة الظاهراتية لإدمون هوسرل أكثر الفلسفات التي عليها ريشار في تأسيس الخلفية الفكرية للنقد الموضوعاتي ، وأول ما نقف عنده في تأثير هذه الفلسفة على النقد الموضوعاتي ، هو مفهوم الوعي وكيف سعى من خلاله ريشار إلى قراءة بعض الأعمال الأدبية ؟ .

يوسم الوعي عند هوسرل بأنه " ليس وعيا ذاتيا ، وإنما وعي الذات بموضوعها " ، والموضوع هنا الشيئ خارج الذات ، ويترجمه بالمقولة : أنا أفكر بما أفكر به وهو بذلك يخالف ديكارت في مقولته : أنا أفكر التي تعني وعي الذات .

والشيئ الذي نفكر به (الذي تتوجه إليه الذات) ، يسمى " القصدية " ونلخص ذلك بأن كل ما يتوجه نحوه القصد يصبح موضوعا للوعي ، فالوعي الهوسرلي هو وعي الذات بموضوعها . وتعمل الظاهراتية وفق مبدأ الأختزال " الإبعاد " الذي يمس كل ماهو تجريبي لأجل الوصول في النهاية إلى الجوهر الذي لا يقبل الاختزال .

ويمثل هذا الجوهر آخر ما يتبقى من فعل الوعي الذي تعمل القصدية على توجيهه نحو ذلك الشيئ ، وفي اكتمال عملية الأختزال نكون قد وصلنا إلى اكتمال

القصد ، أي المعرفة ، وتوصف هذه الأخيرة بأنها كاملة حينما يكون الشيئ الذي نتوجه إليه بالتفكير داخل الوعي ، وتكون ناقصة حين يكون إدراك ذلك الشيئ إلا من بعض جوانبه . ويتحقق هذا الوعي على مستويين من أنا الذات حيث :

- يختص الأنا النفسي بالحقل التجريبي للقيام بعملية الاختزال وبلوغ المفاهيم .

- ويختص الأنا المتسامي بمراقبة حالات الوعي الذي يقود إلى مفهوم آخر تأثر به ريشارهو مفهوم المراقبة والوصف والتوجيه ، وهي أحد المفاهيم التي تأثر بها المنهج الموضوعاتي في استيعاب تعامله مع النصوص الأدبية .

الدرس الثالث : آليات المقاربة الموضوعاتية

أولا : الموضوعاتية : المباحث والخصائص

1- مباحث الموضوعاتية :

تبحث الموضوعاتية عن المعنى في كل الاتجاهات ، ويستخلص هذا المعنى من خلال ملاحقة الأفكار الأساسية التي يتكون منها العمل الأدبي من خلال بحث العلاقات الخفية التي تنسجها عناصر الموضوع عبر صور وأشكال ووجوه في ذاك العمل الأدبي ، وتظهر تلك العلاقات من خلال التشاكل والتضاد والثبات والتحول والانفتاح والانغلاق ...ويرصد الموضوعاتي في هذا البحث كل الكامات المفاتيح والصور الملحة ، والعلامات اللغوية البارزة والرموز الموحية ، ثم يقرؤها إحصائيا وتأويليا من غير أن يغفل القراءة السياقية والذهنية للكلمات واستكشاف المفردات المعجمية المتكررة ؛ لأن حيوية البحث الموضوعاتي تكمن في القيمة الاستراتيجية للموضوع التي تكون ماثلة في هندسة موقعه ، وفي تلك الحيوية تتحقق متعة البحث الموضوعاتي ويتحقق معها فيه تجلي الطابع الابتكاري .

2- خصائص الموضوعاتية :

ينتهي ريشار في تأسيسه للموضوعاتية إلى أن ثمة " صعوبة لإيجاد طريقة موحدة لحصر الموضوعاتي " ، ويؤكد على أن نجاعة الموضوعاتية في دراسة العمل الأدبي " يجب أن تكون كذلك ، لأن كل مقاربة نقدية تقتضي افتراض أصالة نقدية للناقد والقارئ والكاتب ، وهذا التوجه المبدئي ، هو بالذات ما يؤسس ويؤصل للمشروع النقدي الموضوعاتي " ، ولذلك من المفيد في استخدام هذا المنهج الوقوف على أبرز خصائصه وضوابطه التي أهمها :

- يهتم الموضوعاتي بتقنية مكونات إطار العمل الأدبي على خلاف الشكلانية التي يتجه اهتمامها في العمل الأدبي بتقنية الإطار .

- الموضوعاتي هو إطار وبنية صغرى ونموذج للواقع ونظام لترتيب معارفنا حول موضوع ظاهرة ما في العالم .

- التأكيد على مبدأ الحرية وعدم التقيد بنظرية نقدية في الأغلب الأعم .

- انفتاح المنهج الموضوعاتي على المناهج الأخرى ، والاستفادة منها في جوانب معينة : فيستفيد من المنهج التاريخي في توظيف سيرة الكاتب ، ويوظف المنهج النفسي بما يقدمه من معارف نفسية ، ويفيد المنهج الاجتماعي بمعارفه الفلسفية خاصة الوجودية ، إضافة إلى المناهج الأخرى مثل المنهج الأسطوري والمنهج البنائي...

- ينظر المنهج الموضوعاتي إلى العمل الأدبي على أنه حاضن لأفكار المبدع الواعية واللاواعية على السواء ، لذا يكفي التعامل مع العمل الأدبي لكي نتعرف على جميع آراء المبدع الظاهرة والخفية .

- وضع صيغ تيماتية وتشييدها داخل نظام محدود أو بدون نظام واضح .

- إن الدراسة الموضوعاتية هي أساسا دراسة لجانب الدلالة في السرد أو الشعر على أن النقاد الموضوعاتيين أثاروا كثيرا من القضايا الجمالية والشكلية ، إلا أن تتبع الوحدات الدلالية يبقى الهاجس الرئيسي في البحث الموضوعاتي .

- قد تطمح الدراسة الموضوعاتية لرسم صورة عامة عن الوحدة العضوية التي تجمع كافة أعمال مبدع واحد ، مع التركيز على التيمات التي لها حضور دائم داخل مجموع النسق وغالبا ما تكون الدراسة في هذه الحالة تحليلية منطقية وليست سردية.

- استخدام لغة شعرية في النقد تكون بمثابة شعر جديد حول الإبداع .

الدرس الرابع : آليات المقاربة الموضوعاتية

ثانيا : الممارسة النقدية في ضوء المنهج الموضوعاتي

نسعى من خلال الكشف عن هذه الممارسة إلى الوقوف على أبرز الإجراءات التي سلكها رواد هذا المنهج في تطبيقه على النصوص الأدبية ، ومن المهم أن نؤكد أن هؤلاء قد اشتغلوا على المعاني العميقة والتلوينات الدلالية ، ولذلك لا يكاد هؤلاء في ممارساتهم النقدية يلتفتون إلى الجوانب التقنية للأعمال الأدبية التي تناولوها .

وقد سلك ريشار في دراسته إجراءات ضمنها كتابه " الشعر والعمق " ، وقد كان ذلك العمل تتمة لأبحاثه سنة 1914 في كتابه " الأدب والإحساس " وتتلخص في الآتي :

1- محاولة الفهم والتعاطف مع الإنتاج الشعري في لحظته الأولى .

2- محاولة رسم واكتشاف ووصف المقصدية الأساسية ، بمعنى وصف المشروع المهيمن على مغامراتهم من خلال ما أسماه ريشار الإحساس الخالص حيث تبدو الصورة في لحظة ميلادها الأولى .

3- محاولة فهم العلاقات المسؤولة عن الأنسجام الداخلي في الأعمال الإبداعية الشعرية التي لها قيمة عالية .

وحسب جان ستاروبنسكي يمكن للناقد أن يضطلع بالمهمات الأساسية في إطار الممارسة النقدية الموضوعاتية ، وهذه المهمات هي :

1- دراسة البنية الرمزية والدلالية ، وذلك بالحرص على أن يكون التحليل محايثا للنص على الأقل في هذا الجانب بالذات .

2- تأويل العمل الأدبي ، أي إظهار موقف كاتبه تجاه العالم الذي يواجهه .

3- الاهتمام بما هو خارج النص عند اللزوم ، وتوظيف ذلك في فهم موقف الكاتب .